٤ ــ الفئات التي تتأثّر، عن بُعد، بالصورة الاعلامية البراقة للحياة الأميركية، وخاصة مع تقدم وسائل الاتصال والاعلام، والسينما... الخ، التي لا تكف عن تقديم أميركا بصورة «المدينة الفاضلة»، أو «جنة الأحلام» المرتجاة.

ولهذه الفئة الأخيرة، «الخاضعة للتضليل الإعلامي المدروس، والتي تؤلّف الشطر الأكبر من أنصار أميركا في بلادنا» (ص ١٢)، يوجّه الدكتور فؤاد زكريا حديثه، آملاً أن يفتح هذا الحديث أمام الكثيرين أبواباً للتفكير ولمراجعة آرائهم السابقة.

لا يردد الدكتور فؤاد زكريا أيّاً من المصطلحات السياسية التي باتت على كل لسان كـ«الإمبريالية»، «اليمينية»،...الخ، في حديثه عن أميركا، ولا يأخذ موقف العداء المتعصّب الذي لا يسهم إلّا في التشويش على ما يود إيصاله لقارئه. بل على العكس من ذلك؛ فهو يتحلى بقدر كبير من الموضوعية، ويحاول-من على أرضية تَفَهم الظروف الإقتصادية والسياسية والنفسية التي يقف عليها المواطن: الطرف الآخر للمحادثة-أن يرد على «الركائز النظرية» للنموذج الأميركي كما تُقدم إليه؛ ويناقش بهدوء مجموعة من الأفكار الموجّهة الأساسية؛ وخصوصاً فكرة أن «أميركا بنت نفسها في مائتي عام، فلنفتح لها أبوابنا حتى نضمن لأنفسنا تقدّماً مماثلاً».

ويأخذ الدكتور فؤاد زكريا القارىء، بمنطق بسيط متسلسل عبر رحلة تكون أميركا في قارة بكر، مليئة بالموارد الطبيعية إلى حد مذهل (وهذا لم يعد متوافراً للدول الفقيرة الطامحة إلى تقليد النموذج الأميركي ومحاكاته)، كما يتقدّم به خطوات باتجاه تفسير النزعة العدوانية الأميركية بردها إلى جذورها، إلى سلوك الأوروبيين الذين غزوا أميركا في مواجهة أهلها الأصليين من الهنود الحمر، وكيف استطاع التفوّق في تطوير أدوات الحرب أن يبيدهم تقريباً، وأن يحقق النصر للغربي على أصحاب البلاد الأصليين. ثم يربط هذه النزعة المترسّبة في العمق لدى الطبقات المسيطرة، من الرأسماليين والإحتكاريين، في أميركا، بما يقابلها على ساحتنا، ويفسر تلك العلاقة المصلحية ــ السيكلوجية (إذا جاز التعبير) بينهم وبين إسرائيل... إنها العلاقة المبنية على «الإعتقاد بأن من ينتمي إلى حضارة أكثر تقدّماً، بالمعنى المادي للكلمة، من حقه أن يعيش على حساب 'المتخلّفين'، أو حتى فوق جثثهم» (ص ١٧)، ويعرض الكاتب إستغلال الأميركيين لقوة عمل ملايين العبيد في بناء الأساس المادي لازدهار «بلادهم»، وهو أيضاً عامل يفتقده الطامحون لتكرار النموذج الأميركي الان. ثم ينتقل إلى تفنيد فكرة «الرخاء» و«الرفاهية» الأميركية الطاغية، لامساً ملامح حول أميركا خافية عن المواطن العادي: الأزمات الإقتصادية الدورية الطاحنة، البطالة، الفساد، إنعدام القيم الإنسانية، التعصّب العنصري... الخ، وكذلك يحلل الدكتور زكريا «الحرية الاميركية» التي دُقت لها الطبول، وهللت لها أجهزة الإعلام في إنماء المعمورة؛ فيتحدّث عن ميكانيكية عملية الإنتخابات في أميركا، وسيطرة إحتكارات المال والبترول والسلاح عليها، ويرد على دعاوي «حرية الصحافة» في أميركا؛ وهي الصحافة المملوكة لكبريات المؤسسات الرأسمالية من جهة، والخاضعة لنفوذ المعلنين ــ من هيئات وشركات إحتكارية ــ من جهة أخرى، كما يرد على اتهام خصوم أميركا بـ«المادية»، حسب المفهوم المباشر للكلمة، مؤكّداً على أن «أميركا، وفقاً لايديولوجيتها التي ترتكز على دافع الربح، والمعلنة صراحة، لا بد من أن تكون أكثر المجتمعات مادية في عالمنا المعاصر» (ص ٣٣).

ثم يطوف الكاتب بالعلاقة القائمة بين أميركا وقضايانا السياسية، ويفسر للقارىء الدوافع الكامنة خلف سعي الولايات المتحدة للتغلغل في منطقتنا العربية بعد الحرب العالمية الثانية، شارحاً أهمية النفط العربي لها، وتأثيره على سياساتها العدوانية تجاهنا؛ ومقدّماً الأسباب الحقيقية الكامنة خلف «إقامة إسرائيل كجسم غريب، مدجّج بالسلاح، في قلب الأرض العربية» (ص ٤٨)، ويرد على الادعاءات التي تُروّج بأن أميركا قد غيّرت من نظرتها لإسرائيل، ومن تحيّزها الواضح لها، ويؤكّد أن الولايات المتحدة في نظرتها «الإستراتيجية» لإسرائيل ودورها في المنطقة، لم تغيّر في توجّهاتها الأساسية نحونا، إلا-بصورة هامشية، «تكتيكية»، سطحية، وبما يلائم هدف الحفاظ على مصالحها في ظل المتغيّرات الجديدة، لأن «مصالح أميركا مرتبطة إرتباطاً لا ينفصم بإسرائيل، أما الدول العربية، فإن أميركا تدرك جيداً أن المصالح الحقيقية لشعوبها تتعارض معها، ومن ثم فإنها لا تعتمد عليها، إلا بقدر ما تسير حكوماتها على سياسة مغايرة لأماني شعوبها؛ وهو أمر تعلم